القضية اللبنانية

– ١٩ –

# هل توحّد لبنان مع فخر الدين المعني الثاني ؟



كانون الثاني ١٩٧٧

# المقدّمة

اذا اردتَ ان تدخل عتبة الهيكل الذي يصلّي فيه فخر الدين المعني الثاني فانزع عن جسدك خارجاً الثوب الذي خاطهُ لك بعض المؤرخين عن الأمير كـ « المعلّقات » التي ظهرت عنه في الاعوام الثلاثينات و « الملاحم » التي تعيد الى الاذهان جو هوميروس واغنية رولان ورائعة ميشيليه في التاريخ الفرنسي. اذا ما رغبت ان تتّحذ بحقيقة الأمير فارمِ كل ما حيك ونُسِج وفصّل عن اللعبة التي حقّق وصلِ بضمير عقلك في زَاوية ... ربما كانت مفاهيمنا ومصالحنا القومية السابقة وراء الاسطورة التي حُبِكَت عن الرجل ، كما وراء الكارثة التي وقعت ، وربما خلاص لبنان واللبنانيين هو في استلهام علمِ وفلسفة التاريخ اللبناني على عريه وواقعه المرير وعيوبه ، بدلاً من استخدامها لمصلحة رؤيا ثبت بطلانها وزيفها .

فما أكثر الأصنام التي نركع أمامها !

جورج هارون


ummam
للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

قبل الأمير فخر الدين المعني الثاني لم يعرف تاريخ لبنان ولا تاريخ الشرق الاوسط تجربة تعايش مسيحي اسلامي كتلك التي حصلت ضمن الإطار السياسي الذي ارسى الأمير الكبير قواعده، بل شهد هذا التاريخ كلما يفصل وكل ما يباعد بين المسيحية والاسلام. وظهور الاسلام نفسه، في القرن السابع، كان تحدّياً سياسياً وعسكرياً، على الأقلّ، للمسيحية الشرقية، المتمثّلة ببيزنطيا وبنصارى المشرق العربي. ومن هنا بدأ الصراع المَسيحي الاسلامي في العالم، وتضاعفَ، بعد زوال دولة البيزنطيين، مع الحروب الصليبية التي استمرّت قرنين ونيّف، في إثرها استتبّ الأمر للمسلمين. وكان مسيحيو لبنان، ولاسيما الموارنة منهم، قد عاضدوا عسكرياً بيزنطيا، ثم الصليبيين، واستمرّوا منكمشين في موقفهم حذرين في عهدي المماليك والعثمانيين.

فهل كلّل النجاح تلك المحاولة التي قامت مع فخر الدين الثاني ضمن وحدة سياسية إطارها لبنان، على الأقل ؟

لنتدارس الجواب بالنسبة إلى فخر الدين اولاً والطوائف ثانياً والسلطنة العثمانية ثالثاً.

## فيما يتعلق بفخر الدين

هل كان في نيّة فخر الدين الثاني تأليف « أمّة » من نصارى ومسلمين ودروز ؟

لتحقيق هذا الأمر على الصعيد القومي يُفترَض معرفة الأمير بعلم القوميات ، وهو علم لم يعرفه الغرب نفسه إلاّ في القرن التاسع عشر ، وفخر الدين عاش في القرن السابع عشر ، وهو يجهل معنى « الامّة » ومغزى « القوميّة » ، وليس له من الانفتاح العقلاني ما يمكنه من الإلمام بما ينطوي عليه « الوطن » في فحواه العلمي الحديث .

وليَستطيع الأمير ذلك على الصعيد الديني ، والطوائف في لبنان ، آنذاك، وحدات دينية متباعدة فيما بينها، منكمشة كل منها على ذاتها ، متحجّرة في مواقفها الواحدة من الاخرى، متشبّثة بتقاليدها، يجفل بعضها من البعض الآخر ويقف منه موقف الحيطة والحذر، بل موقف الشك والخوف — لكأنّها امم دينيّة وقوميات مذهبيّة — ليستطيع ذلك ، ينبغي ان يحيط بالدين جوهراً وعقيدة بغية إيجاد قواسم مشتركة يلتقي عندها مختلف الأطراف المتنافرة .

ولكن فخر الدين اعجز من أن تبلغ به القدرة على صهر سكان لبنان عن طريق الدين ، وهو يجهل اللاهوت المسيحي

وعلم الكلام الاسلامي ، ويجهل تعاليم الديانتين ، ما يجمع بينهما وما لا يجمع ...

فهل سعى الأمير إلى التوحيد على صعيد السياسة او الحياة الاجتماعية ؟

لقد قيل ان فخر الدين لا طائفي وانه لا يهمّه الدين ، وان تجرّده من الرواسب الطائفية كان مضرب المثل .

الواقع ان همّ فخر الدين ، كما يستدلّ من سير نشاطاته ، هو تحقيق امور ثلاثة :

أولاً = تثبيت حكمه وسلطته .
ثانياً = التفرّد بهذا الحكم دونما تدخل من السلطنة العثمانية.
ثالثاً = توسيع دائرة هذا الحكم رقعةً ومساحةً .

استخدم الامير ، توطيداً لدعائم إمارته وتركيزاً لنفوذه ، طريقتين مختلفتين :

في الاولى حاول أن يُوهِم الطوائف المختلفة ، المتباعدة بعضها عن البعض الآخر ، انهُ معها جميعاً ، لكي تطمئنّ إلى موقفه الديني منها ، والدين في حينه المحرّك الأوّل لسياسة الطوائف في ما بينها وفي ذات كلّ منها : فكان يستغلّ مناسبات

معيّنة ليظهر ارتباطه مع كل طائفة على حدة ، فتعتقد انه لها دون سواها ، فتتنافس الطوائف فيما بينها على كسب ودّه .

من ذلك أنه عندما أوغر صدور السنيين تعاونهُ عسكرياً مع الدروز والموارنة سلك معهم سياسة إرضاءات بينها :

- بناء جوامع في صيدا وبيروت والقاع وعلى نفقته .
- صيامه او تظاهره بصيام رمضان .
- تظاهره بسعي جهده وتكريس وقته لتطبيق الشرائع الاسلامية.
- حضوره رسمياً الصلوات ابّان الاعياد الاسلامية الكبيرة .
- استقدامه إلى بلاطه عدداً من علماء السنّه .
- إنفاقه على قوافل الحجّاج إلى مكّة .
- تأمينه سلامة الطرقات التي يسلكها الحجّاج في المناطق الخاضعة لهُ وحضوره حفلات ذهابهم وايابهم [1] .

لكن هذه السياسة التي اتبعها فخز الدين مع السنّة يرجّح ان وراءها ايضاً غرضان آخران : إزالة الشك من أذهان العثمانيين

---

(١) انظر احمد بن محمد الخالدي ، لبنان في عهد الامير فخر الدين المعني الثاني ، بيروت ، الكاثوليكية ، ١٩٣٦ ، ٢٣٥ و٢٣٨ ؛ طنوس الشدياق ، أخبار الأعيان في جبل لبنان ( نشر بطرس البستاني ؟ ) ، ٢٩٩ - ٣٠٣ و٣٢٣ - ٣٢٦ .

بانه حامي النصارى، وكانت قد رفعت الشكاوى بحقّه ، في هذا المجال ، للباب العالي ، واتّهم بانه لا يحترم شريعة القرآن ، ثم تحضير نفسه لتسنّم ونصب السلطنة [١] . ومع ذلك ، فان السنيين لم يكونوا راضين عنه لعطفه على المسيحيين [٢] . وسياسة التقرّب نفسها التي اتبعها مع هؤلاء دفعت بعض رجال الدين المسيحي إلى اطلاق رواية مفادها ان الامير اعتنق المسيحية، وان البابا أعفاهُ من إعلان تنصّره ، وانه حاول إدخال أبنائه في سلك الرهبنة في فرنسا .

وإلى ذلك ، كان سهلاً عليه ان يقنع الدروز باخلاصه لهم على انهُ درزي كوالديه[٣] .

الطريقة الثانية التي استخدمها فخر الدين الثاني لتعزيز هيبته في الحكم هي لجوؤه إلى العنف، لا بترفّع رجل الدولة المسؤول عن مختلف أطراف النزاع ، بل بصفة الرجل الاقطاعي الذي لا يتورّع عن خوض الحروب الطائفية ضدّ مناوئيه وأخصامه من الطوائف :

---

(١) الخالدي ، ٢٤٤ ؛ شدياق ٢٢٩ .

(٢) بولس قرألي ، فخر الدين المعني الثاني امير لبنان ، ادارته وسياسته ، ١٥٩٠ — ١٦٣٥ ، مطبعة القديس بولس ، حريصا ، ١٩٣٧ ، ص ٣٤ .

(٣) انظر يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ، بيروت ، ١ ، ٣٦٨ — ٣٧٠

حارب عدّة سنوات آل سيفا السنيين الموالين في مجموعهم للعثمانيين ، وهم ذوو نفوذ وسّيطرة في شمالي لبنان وطرابلس وكسروان وبيروت [1] .

حارب كذلك الشيعيين ، فهاجم آل حرفوش ونكد في البقاع سنة ١٦٢٢ ، كما حارب آل حماده ، وآل الصفبر ، وآل المنكر ، وآل شكر ، وسواهم وسواهم[2] من الاسر الشيعية العريقة والاقطاعية .

وليعوّض فخر الدين الثاني عن استعداء المتاولة والسنيين رأى نفسهُ مضطرّاً إلى التقرّب من الموارنة :

– قلّدهم الرتب والمناصب العالية على حساب السنيين والمتاولة
– أولى المسيحيين الإمارة في كسروان – الفتوح وغزير .
– ناصر المسيحيين على أعدائهم .
– أسهم في رفع آل الخازن إلى درجة المشيخة .
– أعلن كسروان منطقة مسيحية .
– عيّن ابراهيم الحاقلاني العالم الماروني ، موفداً لهُ في اوربة .
– نصب أبا نادر الخازن مستشاراً أولاً لهُ .

---

(١) انظر اسطفان الدويهي ، تاريخ الازمنة ، بيروت ، الكاثوليكية ، ١٩٥١ ، ٢٩١ – ٣٠٨ ؛ الخالدي ، ٦٦ .

(٢) الدويهي ، الازمنة ، ٣١٦ ، ٣٢١ .

– منح المسيحيين الحرية الدينية الكاملة .

وكان لتقرّبه من المسيحيين سببٌ آخر هو اعتمادهُ عليهم في حاجته إلى مسيحيي اوربا للتخلّص من العثمانيين .

ومن هنا لجوؤه إلى فلورنسا سنة ١٦١٦ و١٦١٨ عند محاربة العثمانيين لهُ ،

واتّصاله بالبابا لعقد معاهدة معهُ لتحرير سوريا من العثمانيين مقابل حمايته للمسيحيين[1] .

ثم اتفاقه عام ١٦٠٨ مع دوق توسكانه الكبير Le Grand Duc بأن يتدخّل البابا فيوجّه التعليمات إلى المسيحيين التابعين لكنيسته في لبنان ، تحت طائلة الحرمان ، ليذعنوا لأوامر الأمير في حال نشوب نزاع بينهُ وبين الباب العالي[2] .

وهكذا حارب فخر الدين مَن كان من الطوائف مناوئاً لهُ ، وخصوصاً السنيين ، لأن ولاءهم كان للعثمانيين ، وكان اعتماد هؤلاء عليهم ، كما حارب الشيعة ، لأنّ زعماءهم الاقطاعيين لم يخلصوا لهُ ، فخاضها حرباً درزية ومارونية بالنسبة لهاتين الطائفتين ، فلم يخرج على التناقض الطائفي في عصره ، بل حاول

---

(١) الدويهي ، الازمنة ، ٣٠١ – ٣١٥ ؛ مزهر ، ١ : ٢٧٧ – ٢٨١ ، ٣١٨ – ٣١٩

(٢) قرألي ، ٢ : ص ١٧١ .

هو نفسه ان يكون طائفياً ، وأن يزايد في هذه النزعة على اشدّ الطائفيين تعصّباً ، فضاعف من حدّة التناقض بتوليد الحسد الطائفي وإثارة الغيرة الطائفية ، فباعد حيث يجب أن يقرّب..؛

أدّت سياسة فخر الدين المعني الثاني إلى خلق العداء بين الموارنة والسنيين، وبين الموارنة والشيعة ، ثم بين الدروز والسنيين، وبين الدروز والشيعة ، دون أن يحصل اي تقارب يُذكر بين الموارنة والدروز ، بصورة عامة .

وهو لكي يخفض من سلطان ونفوذ الطائفتين المناوئتين له في عقر دورهما نقل جماعات من مسيحيي لبنان الشمالي إلى جنوبي لبنان ليسكنوا في المنطقة الشيعية .

وجلب فريقاً مسيحياً آخر إلى قرى الشوف، كما سنرى فيما بعد ،

ونقل قسماً أكبر من المسيحيين، فأقامهم في المدن الساحلية السنيّة كعكا وصور وصيدا وطرابلس وبيروت ،

وكذلك أسّس قرى مسيحية في منطقتي عكار والبقاع المسلمتين ؛ وهذه القرى ، كما يقول الدويهي ، اسهمت في ردّ الهجمات الاسلامية عن إمارة فخر الدين الثاني، وفي منع البدو المسلمين من القدوم إلى لبنان[1] . وكان قد مضى — حتى

---

(١) تاريخ الازمنة ، ص ٣٢٩.

فخر الدين — اجيال من انقسام الطوائف الجغرافي ، ولم يعمد الامير إلى تحضير الجو للإقامة المشتركة بين الطوائف في أرض واحدة ، وهي المتعادية فيما بينها تاريخياً ، فكان أن ضاعف من اسباب الاحتكاك والصدام تحقيقاً لأهوائه في السيطرة وتوطيد الحكم الشخصي .

وسياسة فخر الدين الطائفية بدت واضحة في الجيش الذي أنشأه .

هذا الجيش يؤلّف الموارنة والدروز اكثريته الساحقة ، فلم يكن فيه للشيعة سوى فرقتان وللسنيين سوى نفر من الضباط[1] .

وكان لهذا التحيّز الطائفي نتائج بديهيّة ، بينها التفسّخ العسكري في المعارك التي خاضها الأمير .

فما أن حاربه العثمانيون سنة ١٦٣٤ حتى تخلّى عنه السنيّون والشيعة ، ولم يبقَ وفيّاً له وصامداً في المعركة سوى المقاتلون الموارنة والدروز .

وهكذا في معركته مع باشا دمشق قام الموارنة باكبر قسط من الجهاد وبذل الجهد لمنع الطوائف الأخرى من التخلّي عنه[2] .

---

(١) مزهر، ١ : ٣٦٥ .

(٢) انظر الأب توما فيتالي، لبنان في السنة ١٦٤٣ (طرابلس ، صدى الشمال ، ١٩٣٨) ، ص ١٥ .

ولولا موأزرة الموارنة لهُ لكان من الصعب عليه ان يَستولي على مدينة الناصرة ، وعلى قلعة طابور ، وعلى صفد وطبريا. وهذا ما حدا بالاب توما فيتالي ( Père Tonnnnaso Yitale ) الذي زار لبنان عام ١٦٣٣ إلى القول في تقريره إلى المجمع المقدّس في السنة ١٦٤٣ : « مما لا ريب فيه أنّ الموارنة وحدهم بين مسيحيي الشرق يحملون السلاح ويستعملونه مراراً ضد الأتراك بقيادة الأمير ولوائه ».

و من هنا أيضاً أن الاب « ما جري » كتب في العام ١٦٢٤ : « بعد أن قتل ابرهيم باشا في السنة ١٥٨٣ من الدروز ستّين ألفاً لم يعد الأمير يستطيع ان يجنّد منهم اكثر من إثني عشر ألفاً . بيد أن عشرين الفاً من الموارنة يحاربون تحت لوائه . واكثر قوّاده منهم » [1].

والأب روجيه نفسه ، طبيب فخر الدين الخاص ، مدوّن حوادثه في آخر حياته ، قال في كتاب ، بعنوان « الارض المقدسة » ، عن نكبة الأمير الأخيرة : « لما رأى المسلمون ان الجيش العثماني يهاجم فخر الدين من كل جهة ، تخلّوا عنه . وهكذا فعل الأروام . وأغلب الدروز لما رأوا اميرهم منكسراً خضعوا لباشا دمشق . ولم يبقَ معه سوى ابو نادر ، القائد العام

---

(١) قرألي ، المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

الشهم ، فقد ثبت محارباً حتى سقط آخر رجل من رجاله قتيلاً أو جريحاً » .

وابو نادر هو أحد القوّاد الموارنة في جيش فخر الدين ، وفرقته من الموارنة ايضاً ، وقد بلغ عددهم عشرين ألفاً ، كما هو ثابت من مختلف الوثائق التاريخية[1] .

وإننا نسمع فخر الدين نفسه يبشّر اوربانوس الثامن ، في كتاب وجّهه إليه عام ١٦٤٤ ، أنه « استولى على كل البلاد المجاورة ( لهُ ) حتى انطاكية ، مساحةَ مِئات من الأميال ، بجيش مؤلّف معظمهُ من النصارى »[2] .

هل وحّد فخر الدين المناطق التي سيطر عليها في نظام حكم واحد ؟

ينبغي الملاحظة ، باديْ ذي بدء ، أنّ الأمير لم يكن لهُ أي وجود ، على الصعيد الرسمي ، إلاّ بجباية الضرائب . هكذا كانت حاله في جميع المقاطعات التي كان له فيها نفوذ .

من جهة ثانية ، كان يُنظر إليه في كل منطقة بطريقة مختلفة عنها في المناطق الاخرى .

---

(١) انظر خاصة قرألي ، المصدر نفسه ، ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٠ – ٧١ .

بينما نراهُ مثلاً في الشوف يمارس حكماً تقليدياً وراثياً ، نراهُ في المقاطعات الدرزية الباقية ، كالغرب ، والجرد ، والمتن ، حيث لا يملك الحكم الوراثي ، ذا صفتين : الصفة الرسمية وزعامته للدروز القيسيين .

أما في المقاطعات المسيحية ، فبينما كانت بلاد كسروان ، مثلاً ، مرتبطة بإمارته المعنيّة ارتباطاً وثيقاً ، خاصة بعد أن وطّد زعامة آل الخازن على أنقاض نفوذ آل عسّاف السنيين ، إذا به في بلاد جبيل وبلاد البترون وجبّة بشري حيث جاءت سيطرته متأخرة ، أعجز من أن يربط هذه المناطق بالمقاطعات الدرزية الجنوبية .

هذا ، وفي ما عدا المناطق الدرزية والمارونية ، لا تعدو سيطرته النطاق العسكري والأمني[1] .

فهل يمكن القول ، والحالة هذه ، أن هيمنة فخر الدين على المقاطعات التي احتلّها أو شغلها ، كانت من نوع واحد؟ هل باستطاعتنا الحكم بتوحيده هذه المناطق ادارياً وسياسياً ؟

(١) انظر مقال كمال الصليبي بعنوان « فخر الدين الثاني والفكرة اللبنانية » ، المنشور في كتاب «أبعاد القومية اللبنانية » ، محاضرات جامعة الروح القدس ، الكسليك (لبنان) ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٦ .

هل كان هو نفسه يعي الفروق بين مختلف انظمة واشكال الحكم التي مارسها في مختلف القطاعات التي تولّى عليها إن بصورة عابرة او مستقرّة ؟ هل كان يهمّه او يعني لهُ شيئاً مختلف انواع الولاء الذي اظهره سكان مقاطعاته بالنسبة إليه ؟

ليس في التاريخ من جواب غير النفي والسلبية ، سيما وفخر الدين نفسه لم تخطر بباله يوماً فكرة دمج مقاطعاته في إمارة لبنانية واحدة وموحّدة ، ولم تكن لديه اية صورة عن « الدولة » بالمعنى الحديث للفظة ، والظلام الدامس ما يفتأ مخيّماً في عصره على الشرق باسره .

فالسنيون في مقاطعاتهم ومدنهم أصلوه حرباً طيلة عهده بالتعاون مع العثمانيين .

والشيعة قضوا سني إمارته يحيكون الدسائس لهُ ويتآمرون على حكمه .

ولم يكن يربط المقاطعات الدرزية والمارونية بعضها بالبعض الآخر سوى العلاقة الخاصة لكل منها منفردة بالأمير ، هـذا بالإضافة إلى موقف الخشية والحذر الذي كانت تقفهُ فيما بينها .

ومن الطبيعي ، في مثل هذه الحال ، ان نرى « الدولة » التي انشأها فخر الدين تنهار بعد سقوطه عام ١٦٣٣ ، فتعود

« الإمارة » المعنيّة إلى ما كانت عليه سابقاً ، إمارة وراثية ، صغيرة ، محدودة ، مقتصرة على مقاطعة الشوف .

وهكذا غاب او تقلّص الكيـان السياسي « الكبير » الذي سعى إليه عنوةً وبمختلف الطرق ، حتى عام ١٦٦٧ عندما قام الأمير أحمد المعني ، فاعاد « الترابط » بين المقاطعات الدرزية وبلاد كسروان فقط ، دون المناطق المسيحية الشمالية ، كبلاد جبيل ، وبلاد البترون ، وجبّة بشرّي[١] .

هل كان لفخر الدين أي تصميم لإمارة « لبنانية »، لوطن « لبناني » يقوم على « أرض لبنان » ؟ هل كان يرمي حقّاً إلى خلق « كيان لبناني » معيّن وموحّد ؟

الواقع ان الأمير ليس لديه اية فكرة عن لبنان الفينيقيين من حيث المساحة والحدود، اية فكرة عن « لبنان الكبير »، كما عرفناه عام ١٩٢٠ ، ايّة فكرة عن اي « لبنان » كان .

بل لم يكن لديه صورة واضحة عمّا يجب عليه ان تكون عليه حدود وطنه ، اية فكرة عن « وطن » ينبغي أن يُعمَل له عن فكرة « الوطن » نفسها.

(١) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

كان جلّ ما يتوخـّاه وجلّ ما يطمح إليه هو ان يضمّ إلى سيطرته ما أمكن من المقاطعات المجاورة لمقاطعته الوراثية ، دون الالتزام برقعة معيـّنة :

كان ، في الأساس ، أميراً على مقاطعة الشوف منذ عام ١٥٨٤ . فأوكل اليه عام ١٥٩١ الغرب والجرد والمتن . من هنا بدأت فتوحاته ، دونما قصد او نيـّة لكيان معيـّن :

احتلّ صيدا عام ١٥٩٢ ، والبقاع عام ١٥٩٤ ، وبيروت عام ١٥٩٨ ، وكسروان عام ١٦٠٥ .

ضمن بلاد صفد من والي دمشق .

احتلّ كسروان عام ١٥٩٨ .

بعد عام ١٦١٠ حاول ان يتوسـّع لتشمل سيطرته بلاد نابلس في فلسطين، وعجلون في شرقي الاردن .

بعد عودته من ايطاليا عام ١٦١٨ حارب يوسف سيفا وشمل حكمهُ بلاد جبيل وبلاد البترون .

عام ١٦١٩ امتدّ نفوذه إلى سنجقي اللاذقية وجبلة .

عقب حروبه مع يوسف سيفا ، بعد هذا التاريخ ، استولى عام ١٦٢١ على جبّة بشرّي وبلاد عكـّار .

بعد وفاة يوسف سيفا عام ١٦٢٤ قام بمساعٍ أدّت إلى تعيين ابنه الاصغر حسين والياً على طرابلس عام ١٦٢٧ [١].

هذه هي فتوحات فخر الدين . فهل ان عكا والمقاطعات الممتدّة إلى الجليل ، إلى خليج العقبة ، التي استولى عليها ، ومنها مناطق صفد ، ونابلس ، وعجلون ، وبانياس ، والحولة ، وطبريا ، واسفل جبل الكرمل ، والناصرة ، وقانا الجليل ، تدخل كلها في « تركيبة » لبنان ؟

هل المقاطعات الشرقية للبقاع التي بسط نفوذه عليها ، والتي شملت حمص ووصلت إلى ما وراء الحرمون حتّى حوران ونواحي الشام[٢] ، لها علاقة بـ « الوطن اللبناني » ؟

« لبنان الكبير » لعام ١٩٢٠ الذي أصرّ عليه البطريرك الياس الحويّك واعلنه الجنرال غورو يقتصر على رقعة من الارض تمتدّ من النهر الكبير إلى حدود فلسطين سابقاً واسرائيل حالياً ،

---

(١) الصليبي ، المصدر نفسه .

(٢) عزيز الاحدب ، « فخر الدين مؤسس لبنان الحديث » ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٣ ، ص ٤٥ .

ومن السلسلة الشرقية إلى البحر المتوسط، ولا تتعدّى مساحته العشرة آلاف وخمسماية كيلومتراً مربّعاً.

لبنان فخر الدين – والاسم هنا في غير محلّه ولا هو وارد بالنسبة إلى الأمير – يمتدّ شمالاً، حتى كيليكيا (طوروس – أمانوس)، وجنوباً، حتى العقبة والعريش والسويس، وشرقاً، حتى الواحات الكبرى، حتى دمشق وحلب وحمص وحماه، وحتى الواحات الصغرى، حتى معان وتدمر[1]، ومساحته مئات الالوف من الكيلو مترات.

فهل اللبنانان واحد؟

وهل يصحّ ان نتشبّث بان الامير هو «مؤسس الكيان اللبناني» بحدوده الحاضرة؟

أو ليس «لبنان» فخر الدين اقرب إلى «سوريا الكبرى»[2] منه إلى لبناننا الحالي، اي لبنان البطريرك الحويّك او لبنان الفينيقيين، خاصةً بعد الالف والمئتين، قبل المسيح؟

أو هل التوسّعات والفتوحات من مقوّمات الاوطان؟ أو هل تُبنى الأمم بالقوّة والتسلّط والإكراه؟

---

(١) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) وهذا الرأي هو ايضاً رأي جواد بولس. انظر كتابه «تاريخ لبنان»، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٢، ص ٣٢٧.

وهل رضي سكان المقاطعات والمدن التي شملها الفتح الفخر الدين باحتلاله اراضيهم وممارسة حكمه عليهم ؟

إن يكن الجواب بالايجاب فبماذا نفسّر انهيار «الامبراطورية» التي اسّسها فخر الدين ، بالعنف حيناً ، وبالحيلة حيناً آخر مع الباشاوات والولاة والسلاطين والعملاء ، أو باقامة مصالح ظرفية احياناً اخرى؟ لماذا انهارت بانهيار إمارته اي بخلعه واسقاطه؟

وكيف نفسّر محاولة إعادة بناء هذه «الامبراطورية» ، ولكن في حجم اصغر وبشكل أقزَم ، على ايدي الامراء الشهابيين، من بعد ، وخصوصاً بشير الثاني «الكبير» ؟

لقد قيل ان فخر الدين هو باني «الوحدة اللبنانية» ، ومن القائلين المؤرّخ بولس قرألي ومفكّرون قوميون لبنانيون . واننا لنسأل هؤلاء : أيّة «وحدة» بنى الامير ؟ «وحدة الارض» أم «وحدة الشعب» ؟

لئن كان المقصود «وحدة الارض» فاية «أرض» هذه ؟ أأرض الجليل والعقبة ونابلس وعجلون وبانياس والحوله وطبريا واسفل الكرمل الناصرة والجليل ؟ ام أرض حمص والحرمون وحوران والشام ؟

وأمّا اذا قُصد بذلك «وحدة الشعب»، فهل حقّق فخر الدين هذه «الوحدة»، وقد شنّها حرباً مارونية ودرزية على السنيين والشيوعيين في «الكيان» السياسي المتقلّب الحدود والتخوم الذي حاول إقامته، حتى ليصحّ القول ان عهدهُ هو عهد اضطهاد الشيعة والسنّة؟

هل حقّق «وحدة الشعب»، والسنيّون والشيعيون معاً — ويشكّل الأوّلون مركز الثقل في المدن والاكثرية الساحقة في المقاطعات التي احتلّها — لم يعترفوا يوماً بأمارته ولم يكن يوماً ولاؤهم له، وانما للعثمانيين، يعملون مع العثمانيين لتقويض دولته ودكّ ولايته، هم في وادٍ والموارنة والدروز في واد آخر؟

ولئن قام بين المقاطعات الدرزية الجنوبية والمقاطعات المارونية الشمالية من ترابط يفوق، في مدة من الزمن، ما ربط المناطق المذكورة بالمناطق الاخرى المجاورة التي استولى عليها فخر الدين فان هذا الترابط لم تكن لحمة وسداه «وحدة الوطن»، وانما ارتكز إلى الولاء للأمير نفسه، للحاكم الواحد. هو القاسم المشترك الوحيد. هو «الوطن». وعبر هذا الأمير ومن خلاله وبواسطته وباشرافه، بصورة خاصة، نشأت ثمة مصالح ومنافع متبادلة. كان الكل في خدمته من أجل خدمة كل فريق لذاته.

المصالح الشخصية والخاصة كانت وراء طموح فخر الدين في

في السعي إلى الحكم والسيطرة ، كما كانت تشدّ كلاً من المقاطعات الدرزية والمسيحية إليه .

المصالح المتبادلة أملت التعايش في ايام المعنيين بين النازحين المسيحيين إلى الشوف وجزين وبين اسياد الارض الدروز . الاولون سعوا وراء التوسع الاقتصادي . واصحاب الأملاك الدروز استخدموا هذه العناصر الغريبة عن معتقدهم الديني لاستثمار اراضيهم في الزراعة ، كما اطمأنوا إلى خضوعها لهم ، وحاجتها إلى حمايتهم ، وهم انفسهم بحاجة اليها ، كطبقة من المكلّفين بدفع الضرائب ، وكملاّكين يفتقرون إلى مَن يجمع غلالهم ويوفّر لهم البحبوحة الاقتصادية [1] .

ويذكر D'arvieux ، من هذا القبيل، انهُ في القرى التي يقطنها المسيحيون بجانب « الكفّار » كان للأولين « الحريّة التامة في ممارسة شعائر دينهم ، جهراً ، وتشييد كنائسهم واديارهم ولبس العمامة البيضاء . اما « الكفّار » الذين هم الاسياد فكانوا يبيحون لهم كل شيء للابقاء عليهم في المنطقة من اجل تحصيل

---

(١) André Latron, La vie rurale en Syrie et au Liban, Beyrouth, 1936, p. 12 ; Dominique Cqevalier, la Société du Mont Liban â l'epoque de la Révolution industrielle en Europe, Institut Français d'Archéologie de Beyrouth, Paris, Librairie Orientale Paul Genthner, 1971, p. 12.

المبالغ المالية التي يتوجّب عليهم (أي الدروز) تأديتها للباب العالي العثماني »[1].

المصالح الاقتصادية كانت وراء السماح للموارنة بالاقامة في مقاطعة جزين وممارسة شعائرهم الدينية وإقامة المعابد. والثمن كان استغلال الارض والتوجّب بدفع ضرائب معينة للاسياد الدروز وتأدية الخدمات لهؤلاء والخضوع لهم.

وكانت النتيجة أن افاد الموارنة من النزاع والتنافس بين العائلات والأسر الدرزية الوجيهة والحاكمة، فقويت شوكتهم وتضاعف عددهم، بحيث أمسوا يشكّلون منافسة للملاّكين والنافذين الدروز انفسهم اصحاب المقاطعات الأصليين.

واثناء هذه المنافسة المارونية كان الدروز يستندون إلى تضامنهم الطائفي، فيما كان المسيحيون يستمدّون دعمهم من نشاطهم الاقتصادي وخاصةً من أواصر القربى التي تشدّهم إلى قراهم الاصلية والى ابناء دينهم في لبنان المتوسط ولبنان الشمالي حيث مقرّ السلطة الروحية لطائفتهم.

وبنزول الموارنة في المقاطعات الدرزية الشوفية والجنوبية بدأت

---

(١) Mémoires du chevalier d'Arvieux, recueillis et mis en ordre par J. B. Labat, Paris, 1935, II, pp. 399 - 400 ; Dominique Chevalier,

مشكلة « المقاطعات المختلطة » التي شغلت الدواوين الاوربية في منتصف القرن التاسع عشر[١] .

وهكذا فان التعايش الماروني الدرزي في مناطق الشوف والجنوب الدرزية لم يدم طويلاً ، فقد طغى فيها العامل الديني على الاقتصادي حتى حجبهُ بالكليّة ، وقد كانت هذه الأماكن مسرحاً للحرب الاهلية بين الطائفتين فيما بعد ، اي منذ السنة ١٨٤٠ وحتى السنة ١٨٦١ .

حتى نزوح الموارنة من الشمال إلى بلاد كسروان ــ الفتوح نفسَها ، وكذلك إلى منطقتي المتن والغرب كان وراءهُ العامل الاقتصادي ، بالنسبة للنازحين وبالنسبة للسكان الاصليين اصحاب الارض التي تمّ النزوح اليها .

كان الموارنة مقاتلين أشداء ، ومجلّين في الزراعة ورعايا هادئين ، ضاقت بهم الرقعة التي يشغلونها في شمالي لبنان ، اي في المنطقة الوسطى من بلاد البترون ، وبلاد جبيل القاحلة ، وفي جبّة بشرّي ، فيما عددهم ينمو ويتضاعف ، بحيث أمسوا يشكّلون كثافة سكانيّة .

---

(١) نفس المصدر والصفحة . minique Chevallers, D. Chevalier, p. 13

وإلى ذلك فقد ناؤوا تحت كابوس الولاة العثمانيين وجورهم، خاصةً يوسف باشا سيفا، وجابهتهم صعوبات العيش، واعترضتهم الضرائب الاميرية الفاحشة يجمعها مقدّموهم لوالي طرابلس وكيل السلطان في مقاطعتهم.

وكان ان آزرهم آل عسّاف، بواسطة وكلائهم ومعتمديهم الحبيشيين في الانتقال إلى كسروان والفتوح، كما شجّعهم اللمعيون والتنوخيّون والمعنيّون على الانتشار في المتن والغرب، كما في الشوف.

ذلك أن هذه الأسر الدرزية النافذة، في ذلك الحين، كانت تستخدم العناصر المارونية في الجندية، بالنسبة لخبرتهم في هذا المضمار، كما توكل اليهم استثمار الارض، وهم من ارباب هذا الفن، وتعهد اليهم خاصةً بتربية دودة الحرير.

وبالرغم من المصالح الاقتصادية الزراعية والعسكرية المشتركة بين النازحين الموارنة والمقاطعات الدرزية المجاورة والبعيدة التي نزحوا اليها فان نزوحهم لم يجرِ بشكل جماعات بل في نطاق الأفراد، بحيث لم يثر ضجّة، ولم يلفت الانظار، وسار بصورة هادئة وبطيئة وتدريجية، فمما جعل الاب اليانو في تقريره

المقدّم إلى البابا غورغوريوس الثالث عشر، عام ١٥٧٨ ، يقول عن الموارنة «انهم بدأوا يسكنون بين الدروز»[1] .

إلى ذلك كانت هناك مصالح حربية وسياسية وراء تشجيع فخر الدين للانتشار الماروني خارج تخوم المقاطعات التي اقاموا منها مثلاً :

١ — بعد مجزرة عام ١٥٨٥ التي فتك فيها ابرهيم باشا والي مصر بالدروز، حيث قتل منهم ستين الفاً ، ونهب بلادهم ، وهدم منازلهم ، وشرّد امراءهم ، وقضى على عقّالهم ، انهارت طائفتهم. فلما تولّى فخر الدين عام ١٥٩٠ مقاطعة الشوف ولزم ان يواجه خطر يوسف باشا سيفا حاكم لبنان الشمالي والأوسط اضطرّ إلى التقرّب من الموارنة والاستعانة بهم عليه ، وهم الطائفة الوحيدة الموالية للأمير والقادرة على العمل العسكري بعد الكارثة التي حلّت بالدروز ، وسيفا عدوّ وخصم الطرفين ، فكان التضامن طبيعيا .

٢ — في موقعة نهر الكلب التي خاضها فخر الدين عام ١٥٩٨ ضد يوسف سيفا حارب مقدّمو جاج الموارنة بجانب الأمير.

---

(١) قرألي ، المصدر نفسه ، ص ٣٦ .

فكان ان انتقم منهم الباشا المذكور وانتزع منهم مشيخة جبيل ، حتى اذا ما اوقع فخر الدين الهزيمة به في موقعة جونيه عام ١٦٠٥ وحرر بلاد الفتوح ومنطقة كسروان، ولّى على غزير الشيخ يوسف المسلماني الذي كا من اصل مسيحي وله اقارب مسيحيون .

٣ — اعتماد الامير على آل الخازن بصورة خاصة ، وذلك ، اعتباراً من عام ١٥٩٨ عندما عبر نهر الكلب إلى كسروان ، للمرة الاولى ، فدخل الخازنيون في خدمته كمدبّرين .

٤ — ظهور العطف الماروني في بلاد كسروان نحو الامير ، خصوصاً بعد سقوط آل عسّاف واستيلاء يوسف سيفا على المنطقة الكسروانية ، وفتكه بآل حبيش الذين كانوا يقومون بوظيفة مدبّرين فيها في عهد العسّافيين ، وإحلاله محلّهم آل حماده الشيعيين ، فكان ان التفّ الكسروانيون حول فخر الدين بعد احتلاله منطقتهم وتحزّبوا له .

٥ — تقليد الامير يونس المعني الشيخ ابا نادر الخازن ولاية كسروان ، وذلك اثناء غياب الأمير في ايطاليا [1].

٦ — حاجة فخر الدين الحربية إلى الموارنة ، بحيث اشترط على

---

(١) الخالدي ، المصدر نفسه ، ص ٥٢ ؛ قرألي ، المصدر نفسه ، ص ٣٦ وما يليها ؛ طنوس الشدياق ، المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

فردنان الاول غراندوق توسكانا ، في اتفاقه معه ، عام ١٦٠٨ ، ان « يحصل له من الحبر الاعظم براءة يأمر فيها ، تحت طائلة الحرم ، رعاياه ــ ولم يكن خاضعاً للكرسي الرسولي ، آنذاك ، من المسيحيين الشرقيين ، سوى الموارنة ــ ان يستعدّوا لحمل السلاح ، ويشدّوا إزره عند أول إشارة تصدر منه اليهم »[١] .

٧ ــ توجيه فخر الدين طلباً إلى البابا ، بعد وصوله إلى توسكانا عام ١٦١٣ ، بأن « يتنازل ويأمر الموارنة الخاضعين له بمعاونته ، وهم لا شكّ فاعلون ، اذا ما جُهّزوا بالسلاح ، لانهم يحبّون الأمير بصفته حامياً للمسيحيين »[٢] .

٨ ــ الصداقة التي نشأت عام ١٦٠٣ بين فخر الدين الثاني وآل مديتشي حكّام توسكانا في ايطاليا ، النافذين لدى الفاتيكان الذين بفضلهم شجّع أحبار روميه الموارنة على اعتبار الأمير صديقاً وحامياً لهم ، كما جاء في رسالة البابا بولس الخامس إلى البطريرك يوحنا مخلوف عام ١٦١٠[٣] .

---

(١) قرألي ، ص ٣٦ ــ ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٣) انظر في هذه العوامل التي قربت الموارنة من فخر الدين ، مقال كمال الصليبي بعنوان « فخر الدين الثاني والفكرة اللبنانية » ، المصدر نفسه ، ص ١٠٠ ــ ١٠٣ .

٩ – عدم الإجماع على الأمير في المقاطعات الدرزية ومعارضة الشيخ بشير جنبلاط واتبـاعه في الشوف له[(١)] ، وايضاً المقاومة الضارية من جانب الدروز اليمينيين في غير الشوف بقيادة زعمائهم ، كالشيخ مظفّر في الجرد ، وامراء الشويفات في الغرب ، والمقدّمين من آل الصوّاف وسواهم في المتن ، بحيث أن التأييد في هذه المناطق الثلاث كاد ان يقتصر على القيسيين ، كما اقتصر ، في الشوف ، إلى حدّ ما على انصار الشيخ يزبك بن عبد العفيف ، خصم الشيخ جنبلاط[(٢)] .

وهذا الوضع كان وراء استقدام فخر الدين الموارنة من الشمال إلى الشوف وبقية المناطق الدرزية بغية تقوية مركزه فيها على الصعيدين السياسي والاقتصادي في آن ، كما كانت مساهمتهم الفعّالة في الزراعة واستثمار الأرض الشوفيّة وغيرها ، دعامة اقتصادية ومالية للملاكين الدروز[(٣)] .

ومع ان الموارنة والدروز حاربوا معاً إلى جانب الأمير في معاركه

---

(١) الدويهي ، « تاريخ الازمنة » ، المصدر نفسه ، ص ٣٢٩ .

(٢) انظر « تاريخ الامير فخر الدين المعني » للخالدي ، نفس المصدر ، ص ٣٢ و ٣٦ .

(٣) الصليبي ، المصدر نفسه ، ص ١٠٦ .

وكانوا درعه وترسه ومركز الثقل في جيشه ، وقد استند اليهم في فتوحاته وفي دعم إمارته ، فلم تقم بين الطائفتين علاقة عضوية كالتي بين فريقي شعب واحد، طالما لم يجمعهما تاريخ واحد قبل ظهور فخر الدين ولا كان لهما ماض واحد ، وانما بدأ تاريخهما المشترك معه ، وفي حروبه عرفا مجابهة المصير الواحد .

مصلحة الموارنة الأمنية وسلامتهم وضمان ممارسة شعائرهم الدينية جعل ، في تصوّرهم ، انتصارات الامير الحربية انتصاراً لهم ، وهزيمته هزيمتهم .

يكفي ، كعقد بين فخر الدين والموارنة ، ليكسب موآزرتهم له ، أن يحلّهم من الاضطهاد الذي كان لاحقاً بهم حتى ايامه ، انطلاقاً من هزيمة الصليبيين ، ومرّاً بالمماليك واوّل عهد العثمانيين وأن يُتاح لهم ، للمرة الأولى ، بعد رحيل آخر جندي صليبي ، بان يركبوا الخيل ، ويرتدوا السراويل الواسعة ، والزنانير المزركشة وأن يتقلّدوا البنادق المجوهرة ، ويمارسوا دينهم جهازاً ، وان يقرعوا النواقيس والأجراس، ويحملوا الصليب امام الجنازة جهاراً، وأن يشيّدوا الأديار والصوامع ، وكان كل ذلك محرّماً عليهم من قبل[1] .

---

(١) اسطفان الدويهي ، «الازمنة» ، المصدر نفسه ، ص ٣٢٩ ؛ الدويهي «تاريخ الموارنة» ، بيروت ، ١٨٩٠ ، ص ٢٠٥ .

هذه السياسة التي اتبعها فخر الدين مع الموارنة كانت تنبع من معين مصلحته وطموحه إلى السيطرة وتوسيع رقعة إمارته وبسط نفوذه على اكبر مساحة ممكنة من المقاطعات المجاورة لامارته الدرزية المعنية الوراثية في الشوف . ومن اجل تحقيق حلمه كان عليه ان يجعل « جبل لبنان » الواقع شمالي بلاد كسروان ــ الفتوح ومعها احياناً ، يدخل في دائرة إمارته . فوفّق إلى ذلك ، مستخدماً الشدّة في إبعاد الولاة والعملاء العثمانيين عن المقاطعات المارونية ، ورحابة الصدر ولين العريكة مع الموارنة انفسهم . وكان ان وجد هؤلاء في شخصه الضمانة لحياتهم الدينية والاجتماعية فتألّبوا حوله يؤيّدونه في مشاريعه الحربية ويساندونه في توسّعه على حساب جيرانه ويعملون تحت لوائه ، جنباً إلى جنب مع ما تيسّر لهُ ان يجمعه من الدروز المخلصين له ، الخاضعين والمنتسبين إلى إمارته المعنية الوراثية في الشوف .

كان التوسّع على حساب الأراضي التي تهيمن عليها الدولة العثمانية هاجسة الاوحد اذن . ولا عجب ان يجعل الموارنة يجدون فيه المنقذ لهم ممّا أصابهم من اضطهاد في أوائل عهد العثمانيين ، وحتى في عهد الامير فخر الدين المعني الأول ، ومن قبل ، في عصر المماليك ، وهو الرجل المعروف بتعصّبه الديني كدرزي وتعصّبه العائلي كمعني . لا عجب من ذلك فقد ضحّى من أجل إشباع شهوته إلى التوسع عبر ممتلكات السلطنة العثمانية

بالقواعد الاخلاقية والمناقب الانسانية عينها ، فكانت المداهنة ـ واللفظة للاب المؤرّخ قرأ لي ـ وكذلك الرياء والكذب والتقلّب الوسائل التي استخدمها توطئةً للوصول إلى مأربه ، وهي علامات اتّصف بها مسلكهُ وميّزت سيرتهُ وحياته السياسية .

ففخر الدين ، قبل ان يكون له اطماع باراضي الدولة العثمانية كان يكره العثمانيين ، لفتكهم بالمقاطعة المعنية الدرزية الوراثية التي ينتمي اليها ، والحاقهم الظلم والنكبات ببني ملّته وآله . ففي العام ١٥٨٤ اجتاحت جنود الدولة العثمانية بلاد الشوف وامعنت فيها نهباً وحرقاً ، فقضت على ستين ألف درزي ، وغدرت بستمائة من عقّال الطائفة ، وتسبّبت بموت قرقماز والد الأمير نفسه ونزع السلطة منه . « وقد اقسم الأمير وبنو جلدته على أخذ الثأر ، وثأر الدروز لا يموت » .

ومن هنا كان على فخر الدين « للوصول إلى غرضه من الانتقام، أن يلجأ إلى التسلّح والتآمر سرّاً ، وإلى المداهنة ظاهراً ، عملاً بالمبدأ المعروف، ألا وهو الاعتصام بالتقيّة .

إلى ذلك ، « كان يتوسع ويثري على حساب جيرانه ، ويتآمر سرّاً على الدولة العثمانية مع الامراء الاوربيين والعصاة الشرقيين . واذا مرّ بجواره وزير من وزراء الدولة اسرع إلى ارسال الوفود بالمؤن والمال . ويشتري بهذه ضمائر الوزراء ، وصداقتهم

وحمايتهم ، ويبدّد ظنونهم به ، متظاهراً بالطاعة والتعلّق باهداب السلطنة ، حتى إذا بَعُدَ ظلّهم عاد إلى مضايقة جيرانه والتآمر على الدولة » .

وكان يتظاهر بالخضوع للسلطنة ويمثّل دور المتقيّد باوامرها وتعليماتها عندما يجد نفسه مضطرّاً إلى ذلك ، وفي نفس الوقت « يُدلي سرّاً إلى امراء الغرب بالمعلومات عن حركات اسطولها ، ومراكبها التجارية ، ليهاجموها ويفنوها ، وعلى مواطن الضعف في ثغورها ليضربوها وينهبوها » .

وعلى صعيد جباية الضرائب ، كان يقوم « بايراد الاموال الاميرية في مواعيدها ، وأحياناً سلفاً ، محافظةً على مركزه ، وتبديداً للظنون الحائمة حول أغراضه من التوسّع ، والتحصن ، والتحالف مع امراء الدول المسيحية »[1] .

وبلغت بالامير الصفاقة ، عندما أحسّ بالحاجة إلى كسب ودّ فرنسا ، لصلة القربى بين اسرتها المالكة وعاهل توسكانا حليفه[2] ، أن كتب إلى دي بريف سفيرها لدى الفاتيكان يذكّره بحسن معاملته للفرنسيّين المقيمين في لبنان ، مدّعياً بان

---

(١) بولس قرألي ، نفس المصدر ، ص ١١٦ و ١١٨ .

(٢) كانت ماري دي مديسي Marie de Médicis زوجة هنري الرابع والوصية على عرش فرنسا ، ابنة أخ الغراندوق فردينان الأول .

الدروز متسلسلون من بقايا الفرنسيين المتأخرين في الشرق بعد الحروب الصليبية ، زاعماً بان المعنيين يتحدّرون من غودفروا ده بويّون فاتح القدس ، ومن ثم يرجو وساطته لدى ملكة والكرسي الرسولي[1] .

## فيما يتعلّق بالطوائف

هذا لجهة فخر الدين نفسه ، اما فيما يتعلق بالطوائف التي كانت تابعة إمارته او تدخل ضمن دائرة نفوذه ، فهل عرفت ثمة ارادة تعايش مشترك وتقارب فيما بينها ، وهل ادركت معنى « الأمّة » والشعور بـ « وحدة » تجمعها ؟

إن المنطقة المسيحية الواقعة شمالي بلاد كسروان لم يكن لها علاقة بالمنطقة الدرزية الواقعة جنوبي كسروان . وبالرغم من التعاون السياسي والعسكري عبر فخر الدين الثاني وبواسطته فان اي اتصال بين الطوائف لم يقم على الصعيد الاجتماعي . وقد دام هذا الامر ، على الاقلّ ، حتى القرن الثامن عشر ومجيء الامارة الشهابية .

واما الهوّة التي كانت قائمة بين سكان المدن الساحلية

---

(١) قرألي ، نفس المصدر ، ص ٣٥ .

السنية كطرابلس وبيروت وصيدا وبين ابناء الجبل النصارى فبقيت في عهد الامير ، كما كانت قبل عهده .

ومع أن صيدا وبيروت دخلتا احياناً ضمن املاك الامارة فلم تعتبرا يوماً جزءاً منها بكل ما للكلمة من معنى .

ومع أن المعنيين اختاروا احياناً احدى هاتين المدينتين عاصمةً لهم فلم يقم بين سكانها والجبل اية رابطة اجتماعية .

وكذلك البقاع ، فلم يعتبر يوماً قطعة من الامارة المعنية وعضواً من اعضائها ، وذلك بالرغم من سيطرة امراء آل معن على القسم الأوسط منه . والمنطقة الشمالية لم تخضع يوماً لا للمعنيين ولا للشهابيين . لكن شيعة ناحية بعلبك كانوا على صلة وثيقة بالامراء اللبنانيين .

واما سكان البلدان المجاورة التي احتلّها فخر الدين الثاني مدةً او بسط نفوده عليها ، فلم ينشأ اي اتصال بينها وبين ابناء الجبل ، خاصة النصارى منهم[1] .

إلى ذلك، ينبغي تسجيل الوقائع التالية :

---

(١) كمال الصليبي ، « تاريخ لبنان الحديث » ، دار النهار للنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩ ، ص ١٣ — ١٥ .

ـ طيلة ايام الامير تابع آل سيفا السنيون تعدّياتهم على المسيحيين.

ـ اضطهدوا طوال عصر الامير رجال الدين منهم [١] .

ـ عندما عُيّن الشيخ ابو رزق موظفاً في طرابلس ثاروا واضطرّوه إلى اعلان إسلامه . ومع ذلك ، قتلوهُ وحملوا ابنه من بعده على اعتناق الاسلام . إلاّ انهُ لما اراد الرجوع إلى نصرانيته ركّزوهُ على خازوق حتى لقي حتفهُ .

ـ ارسل المسيحيون شكوى بواسطة الشيخ ناصيف الخازن إلى الملك لويس الرابع عشر يتظلّمون إليه من اضطهاد المسلمين ، فاجاب واعداً بمساعدتهم [٢] .

ـ مع ان فخر الدين الثاني ابتدأ حكمه عام ١٥٩٨ باشهاره الحرب على آل سيفا اصحاب النفوذ في شمالي لبنان وطرابلس وكسروان وبيروت [٣] ، فقد هاجم آل حرفوش المسيحيين

---

(١) الدويهي ، « تاريخ الازمنة » ، ص ٣٣٦ .

(٢) الدبس ، « تاريخ سوريا » ، ٧ : ٢٨٤ ؛ المطران يوسف دريان ، « نبذة تاريخية في اصل الطائفة المارونية » ، بيروت ، المطبعة العلمية ، ١٩١٩ ، ص ١٧٢ – ١٩١ .

(٣) الدويهي ، « تاريخ الازمنة » ، ص ٢٩١ – ٣٠٨ ؛ الخالدي ، نفس المصدر ، ٦١ .

في جبة بشرّي عام ١٦٠٢ وامعنوا نهباً وسلباً لبيوتهم وممتلكاتهم ، كما انهم أهانوا وحقّروا مقدّساتهم وسَطوا على كنائسهم [١] .

– الاضطهاد الذي لحق بالمسيحيين، في عهد يوسف سيفا ، اضطر بعضهم إلى إعلان اسلامه وتأليف فرقة دُعيت بالبياضة تحارب معه .

– هناك ايضاً القتال الذي نشب عام ١٦٣٤ بين آل سيفا السنيين وآل حماده الشيعيين وقد ذكره المؤرخ الدويهي [٢] .

وينبغي الاشارة إلى وقائع اخرى من الصراع الطائفي حدثت قبيل تسنّم فخر الدين الثاني بسنوات قليلة، منها :

أولاً : عودة الحرب بين السيفيين والحبشيين في لبنان الشمالي عام ١٥٩٣ [٣] .

ثانياً : في عام ١٦٠٢ نشبت الحرب بين آل سيفا وشيعي بعلبك وجبة بشرّي ، وجلّهم من آل حرفوش [٤] .

---

(١) الدويهي ، « تاريخ الازمنة » ، ٢٩٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣١ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٨٨ .
(٤) انظر الأمير حيدر الشهابي ، « الغرر الحسان في وتاريخ حوادث الازمان ، مصر ، « مطبعة السلام » ، ١٩٠٠ ، ص ٦٢٣ .

ثالثاً : اثناء ذلك كان مسلمو بيروت ينزلون بمسيحييها اشد انواع الاضطهاد.

رابعاً : احتلّ المسلمون في بيروت كنيسة الرهبان الفرنسيسكان بحيث حوّلت إلى جامع ما يزال إلى اليوم، وهو المعروف بجامع السرايا[1].

### لجهة السلطنة العثمانية

أما السلطنة العثمانية فهل كانت تهدف إلى تأليف «أمّة» في لبنان في عهد فخر الدين الثاني؟

الواقع ان السلطنة، وهي تمثّل الاسلام السياسي والديني، لم تكن لتطمئن إلى المسيحيين في لبنان، منذ اول عهدها. فكانت سياستها ترمي إلى إضعاف هؤلاء إلى الحدّ الاقصى، وذلك بتقسيم البلاد ادارياً، بحيث يخضع كل قسم منها لادارة اسلامية، وعلى النحو الآتي[2].

---

(١) انظر الاب لويس شيخو، «بيروت، تاريخها وآثارها»، مط. الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٥، ص ٨٤.
راجع خاصة، في الموضوع معارك الطوائف اللبنانية كتاب أنيس صايغ، «لبنان الطائفي»، دار الصراع الفكري، بيروت، ١٩٥٥ ص ٨٣ – ٨٧.

(٢) G. W. F. Skipling, « The Ottoman Turks and the Arabs ». Urbana, University of Illinois Press, 1942.

أولاً : تولية امير درزي على لبنان الاقطاعي بما فيه المسيحيون كما كان الحال مع فخر الدين :

ثانياً : إلحاق الساحل الجنوبي من لبنان بولاية دمشق .

ثالثاً : إلحاق الشمال المسيحي بولاية طرابلس .

رابعاً : جعل صيدا ولاية خاصة سنيّة سنة ١٦٦٠ .

وقد نتج عن هذا التقسيم ، في ما نتج، أمران :

الأمر الأول : كان المسيحيون يقطنون باكثريتهم الساحة في شمالي لبنان . فعندما أتبع الشمال بولاية طرابلس ليأمن العثمانيون شرّهم ، نزح مسيحيو طرابلس انفسهم إلى المتن وكسروان . وكانت المنطقة الاولى شيعية ، والثانية درزية .

الأمر الثاني : كانت ردّة المسيحيين الشماليين إجلاء الشيعيين من الشمال . وقد استمرّ هذا حتى القرن التاسع عشر[1] .

وبحسب ستربلينغ[2] ، كانت غـاية السلطان سليم من

---

(١) انظر الخوري زغيب ، «تاريخ عود النصارى إلى جرود كسروان» ، مصر ، (المقتطف ؟) . ذكره انيس صايغ ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

هذا النظام الاقطاعي التقسيمي والطائفي ان يجعل للمسلمين حقّ الإشراف على الموارنة فلا يعود هؤلاء إلى الاتّصال بدول اوربا المسيحية .

ولم يكتفِ السلطان بذلك ، فراح يدعم النظام الطائفي ايضاً في التشريع وفي الإدارة . وجعل وظائف الخرّاج من نصيب مختلف الطوائف . وسلّم القضاء لرؤساء الطوائف .

ثم ان العثمانيين هم الذين عمّموا النظام الملّي في مختلف مرافق الحياة الاجتماعية ، خاصةً في التشريع والقضاء والادارة ، وهذا النظام كان معروفاً قبل ذلك باجيال عديدة في الشرق الادنى ، وقد عمل به المماليك بدورهم ، بحيث قسم المجتمع إلى ملل او طوائف لا إلى أعراق او مجموعات عنصرية [1] .

يتبيّن إذن ان النيّة في إرساء الوحدة القومية أمر لم يعرفهُ كيان فخر الدين الموسّع ، كما والجزء المتعلّق بالجبل ، وذاك الذي يقوم عليه كياننا الحالي .

فالأمير المعني لم يحاول او لم يكن بإمكانه لا قومياً ولا دينياً ولا اجتماعياً ، صهر رعاياه في بوتقة واحدة ، على اختلاف

---

(١) انظر فيليب حتّي ، «تاريخ سورية ولبنان وفلسطين» ترجمة كمال اليازجي ، مراجعة جبرائيل جبور ، دار الثقافة ؛ بيروت ، ط . ٢ ، ج ٢ ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٣١٢ - ٣١٣ .

عناصرهم وتباين طوائفهم ، خاصة وان الرقعة من الارض التي بسط نفوذه او سيطرته عليها كانت تمتدّ او تتقلّص بحسب الظروف ، وحكمه وحضوره يتنوّع حسَب المقاطعات والاقوام القاطنة إمارته ، وهو يقرّب إليه من الطوائف من يستطيع الانتفاع به في اغراضه التوسعية وأطماعه السياسية ، ويحارب منها من لا يستطيع إخضاعها لسلطانه ، مستعيناً بالأولى عليها ، ضارباً البعض منها بالبعض الآخر .

كما أن الهوّة بين هذه الطوائف لم تُردَم في ايامه . الاتّصال الاجتماعي لم يقم بينها ، والحوادث الطائفية بالكليّة . ففي بعض الجهات ، كبيروت ، مثلاً ، استمرّت ، كما من قبل ، عدا اشتراك بعض ابناء الطوائف مع الامير في مقاتلة ابناء الطوائف الاخرى .

وهناك طائفتان كبيرتان ، على الأقل ، لم تعترفا بفخر الدين ولا بكيانه السياسي .

والدولة العثمانية نفسها كان لها القسط الوافر في ترسيخ الفجوة بين الطوائف بتقسيماتها الادارية ونظامها المليّ ، ونوع حكمها ، ولاسيما ممارسة تغليب المسلمين على المسيحيين ، بحيث وقف هؤلاء منها موقف السنيين والشيعيين من فخر الدين نفسه ، أي اقرب إلى الحذر والخصام والحرب منها إلى الاطمئنان للمصير والمحاباة والسلام .

إلى ذلك ، فان عبارة « لبنان » نفسها لم تُعرَف ولم تستعمل في أيام فخر الدين ولا في عهد خلفائه من الامراء المعنيين . ثم ان هؤلاء عُرِفوا بـ « امراء الدروز » لا بـ « امراء لبنان » .

ولم يكن شائعاً سوى عبارة « جبل لبنان » التي كانت تُطلَق على المناطق المارونية الواقعة في اقصى الشمال ، اي جبّة بشرّي ، وبلاد البترون ، وجبيل . اما بلاد كسروان فبالرغم من أن سكانها كانوا من الموارنة فقد اعتُبرت احياناً جزءاً من « جبل لبنان » ، واحياناً خارجة عنه .

واما المنطقة الواقعة جنوبي كسروان ، بما فيها المتن والشوف فكانت تُدعى « جبل الدروز » وقد استمرّ اسمها هذا حتى القرن الثامن عشر . تتضامن في الحالات الحَرِجة فعلى صعيد الاقطاعيين ايضاً[1] ، فيقود كل زعيم من هؤلاء رجاله لمحاربة العدوّ المشترك . وهكذا لم يكن هذا التضامن وليد شعور « قومي » مشترك ، او حتى شعور « شعبي » حرّ ومسؤول ، بل انقياد وراء رجل فرد يمثّل الطائفة أو يجسّد الإقطاع .

وحتى الانتشار الماروني في مناطق الوسط والجنوب من

---

(١) انظر كمال الصليبي ، « تاريخ لبنان الحديث » ، المصدر نفسه ، ص ١٢ – ١٥ .

لبنان لم يؤدِّ إلى خلق مجتمع جديد مُوحّد بين النصارى النازحين والدروز اسياد الارض والمقيمين الاصليين .

ولا يمكن القول ان الأمير وحّد المقاطعات المختلفة بشخصه . لان إخضاع جماعات منكمشة الواحدة منها على نفسها لشخص واحد في آرائه ومزاجه ومصالحه وتقلّباته لا يعني توحيد هذه الجماعات فيما بينها .

ثم إنّ المدن والمقاطعات التي احتلّها أو فرض نفوذه فيها خارج « لبنان » الحالي لم تكن مستقرّة الحدود واستيلاؤه عليها كان ظرفياً وعابراً وموقتاً وحكمه فيها سطحي واحياناً صوري، خاصة وهو لم يُعنَ معظم الاحيان بشؤونها الداخلية ولا ساندته سياسياً ولا عسكرياً، فلا يجوز اليوم اعتبارها جزءاً من « إمارة » فخر الدين الثاني، بصورة رسمية .

مقاطعات ومدن الساحل اللبناني عينها من عكار إلى طرابلس إلى بيروت إلى صيدا إلى صور لم تكن سيطرة الامير المعني فيها كاملة ولا دائمة ولا مستقرّة، وبصورة خاصة مدينة طرابلس . واحياناً كثيرة كانت هذه المناطق تابعة للولاة والعمّال العثمانيين أكثر منها لفخر الدين الثاني .

ما يسمى اليوم بـ« محافظة البقاع » لم يكن خاضعاً كله له ،

كما سلف القول ، بالرغم من بعض علاقات قامت بين شيعيي بلاد بعلبك وامراء آل معن [1] .

إلى ذلك ، فان ابناء المقاطعات والمدن السنية الساحلية وسكان معظم منطقة البقاع الشيعة وقفوا من « إمارة » فخر الدين الثاني موقف الشيخ بشير جنبلاط والدروز من الامير بشير الثاني الكبير ، بالاخص في اواخر عهد هذا الأخير او موقف المحمديين من « لبنان الكبير » قبيل عهد الاستقلال ، فلم يُعرَف عنهم سوى التنكّر للكيان والسلبية والمعارضة ، وذلك بالرغم من سعي الأمير للتقرّب منهم ومحاولته كسب ولائهم لسلطته . فكانوا إلى العثمانيين أقرب ، وقد قضى الأمير سني ولايته يقاوم مناوأتهم لَهُ ومحاولتهم تغليب العثمانيين عليه .

بل انه في نهاية عهد الأمير ، عندما حاق به خطر السقوط لم يتخلَّ عنهُ ، كما رأينا آنفاً ، المقاتلون من السنّة والشيعة فحسب بل الدروز انفسهم ، ولم يصمد معهُ سوى الموارنة حتى آخر مقاتل منهم .

هذا في ما خصّ الكيان الموسّع الذي بسط فخر الدين

(١) المصدر السابق ، ص ١٣ .

نفوذه عليه من وقت إلى آخر ، اما بما يتعلق بـ « الجبل » فينبغي تسجيل الوقائع التاليّة :

أولاً : جعل الامير لآل الخازن زعامة في كسروان بعد انقراض زعامة آل عسّاف عام ١٥٩١ ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بإمارته . فكسروان سبقت جميع المقاطعات المارونية الشمالية في الانتساب إلى الإمارة المعنيّة .

ثانياً : اما بلاد جبيل وبلاد البترون فلم ترتبط بالأمير إلاّ بعد عام ١٦١٨ وذلك بعد هزمه يوسف سيفا ، بتحريض من الدولة العثمانية .

ثالثاً : جبّة بشرّي لم تُضَمّ إلى إمارته إلاّ في عام ١٦٢١ ، اي قبل سقوط حكمه بنحو اثنتي عشرة سنة وعلى أثر انتصاراته على يوسف سيفا [1] .

السنوات التي ارتبطت فيها اذن المناطق المارونية شمالي كسروان بفخر الدين لم تكن كافية لقيام صلة حميمة وعضوية بإمارته أو بآل معن ، فكيف بالمقاطعات الدرزية جنوبي كسروان والشوف .

---

(١) كمال الصليبي ، « فخر الدين الثاني والفكرة اللبنانية » ، المصدر نفسه ، ص ١٠٧ .

إلى ذلك ، فان مناطق صفد ونابلس وعجلون وحوران ، مثلاً ، كانت اقرب إلى حكم فخر الدين من المقاطعات المارونية الشمالية في الجبل ، خاصةً ، قبل سيطرة الامير على هذه الاخيرة . لان المناطق الاولى كانت وكسروان ، قبل هذا العهد ، تابعة ولاية دمشق ، بينما تبعت بلاد جبيل والبترون وجبّة بشرّي ولاية طرابلس . ومع ذلك فقد كان فخر الدين يتمتّع بعطف شعبي عند موارنة الشمال ، مثلما عند موارنة كسروان . فالشعب الماروني ارتبط به وبآل معن في آنٍ .

بالرغم من جميع هذه العوامل وما سبقها يمكن القول ، مع بعض التحفّظ ، بان فخر الدين الثاني كان وراء نواة « وحدة الجبل » ، من الناحية الجغرافية ، بفصله الشمالي الماروني والجنوب الدرزي عن الدولة العثمانية وتطبيق الحكم المحلي فيهما ، ولو مدةً من الزمن ، وكذلك من الناحية البشرية بتشجيعه الموارنة والملكيين على الانتشار في المتن والشوف والغرب والجنوب وعكار .

والذي ضاعف في بلورة هذه « النواة » السياسية الجديدة كون فخر الدين الثاني توصّل بسعيه وجهده ، وربّما تحقيقاً لأطماعه في السيطرة والتفرّد فيها ، إلى إرساء نوع من الحكم

الداخلي المستقلّ عن الدولة العثمانية ، برزت خطوطه العريضة، كما يلي [1] :

أولاً : لم تكن تترتب على الأمير اية مسؤولية سياسية تجاه الدولة العثمانية .

ثانياً : لم يكن متسنّماً منصعاً ادارياً في هذه الدولة ، كما مع يوسف سيفا الذي عُيّن والياً عثمانياً في إيالة طرابلس وممثّلاً رسمياً للعثمانيين فيها ، ينفّذ أوامرهم ويطبّق قراراتهم أيّاً كانت، ولو تناقضت ومصلحة شعبه ورعيّته وكانت وبالاً عليهما .

ثالثاً : كانت مسؤولية فخر الدين الثاني الرسمية تقوم خاصة بجباية الضرائب . لذلك كان يعمد إلى جمعها بوسائله الخاصة ويدفعها إلى ممثّلي الدولة في دمشق ، دونما بطء أو تباطؤ ،

رابعاً : أدار دفّة بلاده الداخلية بحريّة ، وهو حريص على إبعاد تدخّل العثمانيين المباشر فيها .

إنما اقتصرت هذه « الإمارة »، في الواقع ، على بلاد كسروان والمقاطعات الدرزية الجنوبية ، وذلك بشخص الامير ، على

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

صعيد الادارة والحكم ، وبشخصه والمعنيين معاً ، على صعيد عطف نصارى الشمال لهؤلاء جميعاً .

ثم ان هذه « الإمارة » لم تعمر طويلاً . فما ان سقط فخر الدين في عام ١٦٣٣ ، أي بعد دخول بلاد جبيل وبلاد البترون فيها بنحو خمسة عشر عاماً ، وضم جبة بشري اليها باثني عشر عاماً ، حتى عادت ، كما ذكرنا سابقاً ، لتنحصر بمقاطعة الشوف وحدها ، كما كانت من ذي قبل .

ومع ذلك استمر الدروز في الغرب والجرد والمتن في ولائهم للمعنيين ، ومثلهم الموارنة في بلاد كسروان وجبيل والبترون وجبة بشري .

كما بقيت كسروان مرتبطة ، من خلال آل الخازن ، عضوياً ، بالمقاطعات الدرزية الجنوبية .

استمر زوال « إمارة » فخر الدين اربعة وثلاثين عاماً ، أي حتى مجيء الأمير أحمد المعني الذي تمكّن من إعادة العرى الوثيقة بين بلاد كسروان والمناطق الدرزية الجنوبية ، بموافقة العثمانيين . ولم يحصل انضمام المقاطعات الشمالية المارونية إلى هذه الوحدة إلا في عهد الأمير بشير الثاني الشهابي ، أي في أواخر القرن الثامن عشر [١] .

(١) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

مما تقدم يتبيّن اذن بجلاء ان ما يسمّى بـ « وحدة الشعب » أمر لم يعرفه كيان فخر الدين الثاني في حجمه الموسّع المتجاوز حدود لبنان الحاليّة ، لتقلّب الحدود بين الفينة والاخرى ، وتنوع السكان ، وبعد المسافات ، وسطحيّة الحكم ، وضآلة النفوذ ومناوأة السكان للامير وعدم الاستقرار وقصر المدة التي بسط فيها فخر الدين نفوذه في هذه الاصقاع المترامية الأطراف .

وان هذه الوحدة لم تتم ايضاً ضمن جغرافية لبنان الحالي نفسه اذا كان المقصود بـ « الشعب » لا الموارنة والامير فقط ، ولا الموارنة وآل معن فقط ، بل كذلك الموارنة والدروز ، وبالأخص ، الموارنة والدروز والسنّة والشيعة .

كذلك لم تتحقّق في عهد فخر الدين الثاني « وحدة الارض » اذا ما قصدنا بـ « الارض » لا كسروان وجنوبيها فحسب ، ولا حتى المناطق المارونية الشمالية والشوف فحسب ، وإنما « الارض » التي يقوم عليها « الكيان اللبناني » الحالي .

لكن تحقّقت ، إلى حدٍّ ، « وحدة الجبل » من ناحية الارض فقط ، لا من ناحية الشعب ، وذلك بفضل الانتشار المسيحي في كسروان وجنوبي كسروان والشوف ، وبقسط يسير في الجنوب والغكار .

إنّما في هذا النوع من «الوحدة» يجب ألاّ نغفل فضل الموارنة ايضاً ، ذلك لاندفاعهم إلى إقامة الحوار ومدّ جسور التعاون السياسي مع فخر الدين ولمعنيين كاقليات واثنيات مضطهدة تاريخياً ، ولاتصالهم الوثيقة باوربة روحياً ، ونفوذهم لدى المراجع الكاثوليكية فيها ، الدينية والزمنية ، وتفوّقهم الثقافي والعسكري والزراعي .

يمكن اعتبار «جبل لبنان» الماروني بـ «إمارة» فخر الدين الثاني وبآل معن بمثابة عقد أو ميثاق غير مكتوب ، في الاساس [1] ، قام بـين الامير والموارنة ، لا بين الدروز والموارنة ، بالتعاون السياسي والحربي حتّمته المصالح والحاجات المشتركة والمتبادلة الملحّة . كان تعاهداً مشروطاً كالعقد المبرم بين دولة واخرى ، وليس علاقة عضوية بين فريقي شعب واحد . لكن هذه العلاقة كانت تستتبع بين الفريقين ارادة التضامن ومجابهة المصير الواحد . من هنا عدم تخلّي الموارنة عن الامير وولائهم وإخلاصهم له ولاسرته .

ففضل فخر الدين الأول انهُ عرفَ كيف يستميل المسيحيين

---

(١) اصبح فيما بعد مكتوباً عن طريق الرسائل التي بعث بها الامير إلى البابا في روميه يفيده فيها عن توليه أمر حماية النصارى في لبنان .

إلى حكمه ، وادركَ قيمة الوجود الماروني على الصعيد السياسي والعسكري والاقتصادي ، واستطاع ان ينتفع بنفوذ لدى اوربة في مجابهته الدولة العثمانية وفي بناء إمارته وتدعيمها ، حتى ليمكن التأكيد انه لولا الموارنة لبقي الامير ، إلى حدّ بعيد ، اميراً على الشوف فقط ، بل لما كان هناك ، على الارجح ، « إمارة » معيّنة على الاطلاق شاملة ما شملتهُ من اراضي ومدن ، وبالتالي لما كان هناك ، على الارجح ايضاً ، « إمارة » شهابية من بعد ولتغيّر تاريخ المنطقة بالكليّة .

وفضل فخر الدين الثاني انهُ أوّل مسؤول غير مسيحي في الشرق الاوسط يمدّ يدهُ إلى اوربة ويتعاون معها في الميدان الثقافي والحضاري والاقتصادي وحتى الديني ، فيتقرّب من البابا في روما وينسّق سياستهُ مع دوق توسكانة ويقتبّس من حضارة فلورنسا .

وفضلهُ انهُ جسّد اولى محاولات التحرّر من العثمانيين ، فقام باولى المجابهات السياسية والحربية معهم ، وكان الرجل الخطر الذي والّد المتاعب الحقيقية للسلطنة ، بحيث قضى ضحيّة جهاده ضدها ، وذلك في عزّ قوّتها وذروة نفوذها .

لقد حيكت حول فخر الدين الثاني اسطورة واية اسطورة ! فهو، بحسب الأب لامنس ، أشبه بموسّس لقومية لبنانية . هذا

ما اعلنهُ هذا المستشرق البلجيكي في الجزء الثاني من كتابه La Syrie . وكان قد مال في الجزء الاول من الكتاب إلى القومية السورية واغفل اي اثر للبنان عبر التاريخ . والفرق بين الجزئين في الاتجاه السياسي واضح . وهذا الاختلاف يعود إلى تقلّب السياسة الفرنسية بين المدّة التي القيت فيها بشكل محاضرات قطع الجزء الأوّل والمدّة التي القيت فيها نصوص الجزء الثاني .

وبصورة عامة ، فان التفسير الوحيد لاسطورة فخر الدين يوجز كما يلي :

القائلون بالقومية اللبنانية لجأوا إلى تبرير تاريخي للكيان اللبناني الحالي ، منذ الثلاثينات ، لانهُ في نظرهم ، نطاق ضمان للحريات الدينية المسيحية ، وزعموا ان فينيقيا نفسها قامت على كيان « لبنان الكبير » ، بل ايضاً كيان الامير بشير الثاني الكبير .

نسبوا إلى الامير المعني حكاية تأسيسه للبنان الحديث ، خاصةً ، بوجه القائلين بـ « الوحدة السورية » ، تحت سلطة الامير عبد الله ، من قبل ، وبرعاية الحزب القومي السوري ، من بعد ، وبوجه الداعين إلى « الوحدة العربية » قبيل عام ١٩٤٣ وبعده ، وإلى « القومية العربية » منذ ذلك التاريخ .

اصحاب نظرية فخر الدين ، معظمهم من المفكرين

المسيحيين ، لان المسلمين لا يمكن ان ينظروا إلى الامير النظرة نفسها اذا ما قام دوره عــلى « فصل » قطعة من « الارض العربية » لتشكّل كياناً لوحده ، وللاسباب التاريخية المتقدم ذكرها في موقف المدن الاسلامية الساحلية من الحكم المعني ، ولعدم ارتباط المقاطعات الاسلامية عامة في « كيان » فخر الدين بالمناطق المارونية او الدرزية في الجبل :

هؤلاء القائلون بفخر الدين لا يخلو حماسهم لهُ من الروح الرومنطيقية ، وذلك بقدر ما كان الامير ذلك الرجل الفاتح ، وبقدر ما عمل لايقاف اجيال من الاضطهاد بحق المسيحيين وما قام به في تمكين هؤلاء من التوسّع جغرافياً ، وإنصافاً ، ايضاً ، بقدر حبّهم للبنان الحالي .

والجدير بالذكر ان « مجلس الادارة » نفسه ، في عهد المتصرفية ، اصدر قراراً بالمطالبة بارجاع الاقضية التي ضمّت إلى جبل لبنان عام ١٩٢٠ باعتبارها تدخل ضمن حدود لبنان « التاريخية » و « الطبيعية » ، أي ، « لبنان فخر الدين » و « لبنان بشير الثاني » و « لبنان فينيقيا » .

وكذلك العريضة نفسها التي قدّمها الوفد اللبناني الاول إلى « مؤتمر الصلح » لاسترجاع الاقضية المسلوخة عن الجبل ، برئاسة البطريرك الحويّك ، شدّد على حدود لبنان « التاريخية »

إياها ، مع ان هذه الحدود لم تكن واحدة لا إبّان الامراء المعنيين او الشهابيين ولا في عهد الفينيقيين .

كما أن حدود لبنان الحالي ، ليست كلها « طبيعية » .

و « الحدود التاريخية والطبيعية » امست ، فيما بعد ، من مقوّمات نظرية « القومية اللبنانية » .

واليوم ، وقد تطور الزمن ، وتقدّم العلم ، لننظر بدهشة إلى « تشديد » كل من « مجلس الادارة » اللبناني والوفدين اللبنانيين إلى مؤتمر الصلح ، والقوميين اللبنانيين ، وقبلهم القوميين السوريين ، على الحدود « التاريخية » و « الطبيعية » . وهذا الموقف مستقى من المدرسة القومية التي كانت شائعة تعاليمها في أوربة وخاصة في المانيا وفرنسا ، في القرن الماضي . فمع الاخذ بعين الاعتبار خطورة العامل التاريخي والجغرافي ليس ما يمنع قيام دول لا جذور لها في التاريخ ولا تتمتع بـ « الحدود الطبيعية ». وقد لا يقلّ شرط « إرادة الحياة المشتركة » القائمة على وحدة المصالح ... اهميّة عن « الماضي الواحد » و « الوحدة الجغرافية » ، بحيث تجد في ايامنا ايلاء الاهميّة للدولة اكثر منه للامّة . وتجد الدولة مؤلفة من عدّة قوميات وعدّة اثنيّات، بحيث تتحقّق « الوحدة في التنوّع » . وهذا ما يغني الدولة ويدعمها ويعززها .

نعود فنؤكّد، مرة أخرى، بان اسطورة فخر الدين لجأ اليها القوميون اللبنانيون عندما كان «لبنان الكبير» يشكّل نطاقه، بنظرهم، ضماناً للوجود المسيحي السياسي في الشرق الاوسط، الذي هو استمرار لوجود بيزنطية العسكري وامتداد لوجود انطاكية الروحي في المنطقة الشرقية عينها.

فهل ما يزال «لبنان الكبير» يشكّل، بنظر القوميين اللبنانيين، هذا «الضمان»؟ وهل ثمّة من حاجة بعد إلى حوك الاسطورة الفخر الدينية؟

يبقى ان لبنان ١٩٢٠، كفكرة وتصميم، كحق تاريخي، ومسوّغ جغرافي، كدأب وسعي للتحقيق، على الصعيد المحلي والدولي، بالحدود عينها، والوضع الديمغرافي عينه، مدين لرجل واحد في تاريخ لبنان، حتى ليمكن القول انه صانع هذا التاريخ في خط غير متواز تماماً مع خط المعنيين والشهابيين. وحده صمّم لبنان بتخومه الحالية. وحده، وللمرة الاولى في تاريخ المنطقة، ولربّما، في تاريخ القارة الاسيوية، دعا إلى تعايش مسيحي اسلامي درزي في «وحدة تراب» وضمن إطار سياسي واحد ونظام حكم واحد. إنه البطريرك الياس الحويّك.

**جورج هارون**

**سلسلة : القضية اللبنانية :**

ظهر منها حتى الآن الاعداد التالية :

١ – لبنان الكبير مأساة نصف قرن ، ١٩٧٥

٢ – لبنان في نظامه السياسي ، ١٩٧٥

٣ – بين علمنة الدولة والغاء الطائفية السياسية طبعة ثانية ١٩٧٦

٤ – دراسة موجزة حول بعض امتيازات الطوائف الاسلامية في لبنان ، ١٩٧٥

٥ – الرسائل اللبنانية الجزء الاول ، ١٩٧٥

الرسائل اللبنانية الجزء الثاني ، ١٩٧٦

٦ – المحنة اللبنانية في اهم ابعادها ، ١٩٧٥

٧ – اعرف حقيقة لبنان السياسي ، ١٩٧٦

٨ – موجز عن المشكلة الفلسطينية في لبنان ، ١٩٧٦

٩ – الأزمات المرتقبة في لبنان ، ١٩٧٦

١٠ – من اقوالهم تستنتجون ، ١٩٧٦

١١ – نص الوثيقة الدستورية ، ١٩٧٦

١٢ – لبنان المستقبل ، من الانصهار السياسي الى الانشطار النفسي والجغرافي ، ١٩٧٦

١٣ – لبنان والهوية العربية – لبنان والعلمانية

١٤ – الاسلام السياسي وهوية لبنان

١٥ – شرعة الجهاد

١٦ – حكاية الازمة اللبنانية

١٧ – دراسة تحليلية لموقف المسلمين اللبنانيين من الحرب اللبنانية – الفلسطينية منذ نيسان ١٩٧٥

١٨ – لبنان امانة تاريخية وحضارية في عنق الموارنة



الثمن : ٢ ل . ل .